المدرسة الظاهرية

(دار الكتب الوطنية الظاهرية)

— ١ —

مقدمـــة

انتدبتني وزارة التربية للعمل أمينة لمخطوطات دار الكتب الوطنية الظاهرية ، فأتاح لي عملي الجديد الاطلاع على كنوز خلفها أجدادنا هي زبدة قرائحهم ، وذوب نفوسهم ، ونتاج عمرهم .

وراعتني الغيرة على مصالح الأمة ، والهمة الشماء اللتان بدتا من طائفة من رجال العلم والفضل في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الحاضر ، ورعتا هذه الكنوز ، وحمتاها قبل فوات الأوان ، وصانتاها من تبديد الأيدي العابثة التي أعمى أصحابها وهج الذهب فمدوها إلى هذا التراث يستلون منه القطعة بعد القطعة ، يبدلونها بمال لا يعدّ شيئاً مهما كثر في جانبها غير مبالين بتراث وجهود وتاريخ ..

وزادني حباً بهذه الدار أنها كانت مدرسة ترددت في جنباتها أصوات طائفة كبيرة من العلماء الأعلام ، وتخرجت منها أعداد لا تحصى من طلبة علوم الدين والدنيا ، كان لهم دورهم في عالم الفكر والروح خلال سبعة قرون .

خطر لي أن أدون ما تقع عليه يدي من أخبار هذه المدرسة والعاملين فيها منذ تأسيسها حتى اليوم ؛ فيكون بحثي هـــذا اعترافاً بفضلها لما أسدته وتسديه لأمتنا من خير وللعلم من خدمة .

عرضت الفكرة على الأخ العالم الأستاذ عمر كحالة فشجعني على ذلك وقدم لي مشكوراً الكثير من المعلومات والعون . ولاقى الأمر ترحيباً من عطوفة الأمير العلاّمة جعفر الحسني الجزائري الأمين العام لمجمع اللغة العربية . ورأى أن ينشر البحث تباعاً في مجلة المجمع ليصار إلى طبعه في كتاب مستقل متى تم .

فكتبت في هذا الموضوع شاكرة للأمير الأمين وللأستاذ الكريم تشجيعها وطيب مساعدتها ، آملة أن أكون قد فتحت الباب لمن يرغب في بحث تاريخ هذه المدرسة بحثاً ضافياً تستحقه ، لأنني واثقة أن كل ما بذلت من جهد لن يفي بحال هذه المدرسة حقها ، فقد كانت ولا تزال منارة علم لا لبلدنا فحسب ، بل لرواد العلم في العالم أجمع .

أسماء الخمصي

★ ★ ★

تمهيد :

من وقف على تاريخ العرب والإسلام ، وعلى الأخص تاريخ الحضارة الإسلامية راعته تلك الوثبة الثقافية ، وأخذ بمجامع قلبه ذلك الانفتاح لشتى المعارف والفنون ، تصبّ في بحر العلوم العربية النامية باستمرار ، وأدهشته تلك الوفرة في المدارس ودور الكتب العربية وخزائنها في الشرق والغرب ، والتي تعطي دليلاً قاطعاً على جهود جدودنا الذين أطفؤوا نور عيونهم لينيروا عقولنا ، وأحرقوا أعصابهم لينموا جسومنا ، وهدموا أنفسهم ليبنوا لنا مجداً خالداً على مر العصور .

ولم يكتفوا بالنظر ، بل أعملوا أيديهم الصناع ، واستغلوا ذوقهم الفني في بناء المعابد ودور العلم والكتب . فعرفت بغداد ، والبصرة ، ودمشق ، وحلب ، والقاهرة ، والمغرب ، وقرطبة ، واشبيلية ، وغرناطة وسواها آلافاً من مراكز العلم ، من مساجد جوامع ، ومدارس ، وبيمارستانات ، وخوانق ، وربط وزوايا ، وتكايا ، وحتى ترب قامت إلى جانب الكثير منها أمكنة لطلب العلم وتلاوة القرآن ، ورواية الحديث . كل هذا بنَوْه ، واهتموا بزخرفته وتمويله اهتمامهم ببنائهم قصورهم الفخمة ، وحدائقهم الغناء .

ومر القرن السابع الهجري على الأمة الإسلامية ، ودالت دولة العلم في بغداد والعراق ، لما أغارت جموع التتار على الامبراطورية الاسلامية كأنها الجراد المنتشر ، تقضي على كل من وما تلقاه ، لا يردعها ضمير أو دين أو مسكة من حضارة ، وأباد « هولاكو » وجنوده الكتب والمؤلفات فيما أبادوه من معالم الرقي ، وامتلك التتار هذه البلاد التي عاشت ستة قرون ونصف مناراً للاسلام ، وجامعة لرواد العلم من عرب ومن عجم .

واستشرى خطر الوثنية والصليبية ، ورأى علماء الشام ومصر ، ومن فر منهم من العراق من خطر المغول ، رأوا أنفسهم مسؤولين عن دعم الدين ونشره ، وتجديد العلم ، وجمع شتات المعارف في كتب طارفة تخلف ما أبيد ، يملؤونها بما وعت القرائح وحفظت الصدور .

وامتلأت نفوسهم حماسة للعمل ، وتحفزت للقيام بالواجب المقدس الذي قدر لهم الاضطلاع بمسؤوليته .

وجدت رغبتهم هـذه رغبة توازيها من سلاطينهم الذين آمنوا أن لغتهم الفقيرة لن تحل محل العربية لغة القرآن المبين ، وحضارتهم القاصرة لن تعدل الحضارة الاسلامية الراسخة ، وأن عددهم لا شيء في عديد العرب وجموع المسلمين . فرأوا — وهم المسلمون — في مؤازرة الدين والعلم ، وفي الأخذ بيد العلماء قربى إلى الله وزلفى ، وترضّياً للشعب العربي المسلم ، وتمكيناً لأنفسهم في الحكم .. فراحوا ينشئون دور التعليم وينفقون عليها بجمع اليدين .

ولا شك أن دور العلم هـذه تعتبر عاملاً أساسياً وحيوياً في تنشيط الحركة العلمية ، لما تتضمنه من مدرسين وطلاب ، ولما يقرر فيها من دروس ، وهي البيئة الطبيعية للعلم ينمو فيها ويزدهر .

وتتمثل دور العلم في العصر المملوكي فيما أنشىء من مساجد ومدارس للمذاهب الاسلامية الأربعة ، وما شيد من خوانق وربط ، وما أقيم من زوايا للصوفية .

وكان إلى جوار هذه المعاهد التعليمية ، كتاتيب صغيرة متواضعة ملحقة بها ، تعنى بتعليم الصبية القراءة والكتابة وطرفاً من العلوم الأولية ، وتحفيظهم القرآن الكريم ، وتعدّهم للالتحاق بالمدارس الجامعة (١) .

(١) عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم ج ٣/ص ٢٥ .

إلا أن عدداً كبيراً منها عبثت به يد البلى ، وأذى الغزاة الفاتحين ، ولا سيما التتار والصليبيون ، فمحقاه أو ذهبا بأكثره مجددين فاجعة العرب سنة ٦٥٦ هـ .

وما تبقى لا يعدو إصبعاً من جسم العلم الضخم تشير إلى رقيّ المسلمين وثقافتهم الفاخرة في عصورهم الزاهرة ، وإلى مدى تفننهم في هندسة أبنيتهم وزخرفتها وتجميلها .

وتزدهي دمشق شأن غيرها من حواضر العالم الاسلامي بالعديد من المدارس المبنية آنذاك . إن نظرة نلقيها على مصوّر دمشق ومدارسها في القرن السابع الهجري (١) ترينا مراكز العلم قائمة هنا وهنـــاك في كل حي من أحياء المدينة من سفح قاسيون إلى مرابع الغوطة ، ومن سهول برزة إلى جداول النيربين .

وبين هذه المباني الكثيرة ما لا يزال يقارع الزمن وصروف الدهر راثياً للإنسان لضعف تفكيره ، ولأذاه نفسه بتحطيم أداة بنائه .

ومن هذه المباني المدرسة الظاهرية والتي سمّيت باسم الملك الظاهر الذي دفن فيها ، حسب العادة الشائعة آنذاك (٢) .

الملك الظاهر (٣) هو ركن الدين بيبرس البندقداري . ولي الملك سنة ٦٥٨ هـ . وهو أبرز ملوك الدولة البحرية المملوكية .

---

(١) كتاب « دمشق الشام » لجـــان سوفاجيه تعريب فؤاد أفرام البستاني ط . بيروت سنة ١٩٣٦ .

(٢) الدارس في أخبار المدارس النعيمي ـ تحقيق الأمير جعفر الحسني الجزائري .

(٣) كلمة (ظاهر) لقب ثمانية من سلاطين المماليك . أولهم من البحرية وهو الظاهر بيبرس صاحب المدرسة المذكورة ؛ والباقون من البرجية وهم : برقوق ، وططر ، وجقمق ، وخوشقدم ، والباي ، وتمبرغا ، وقانصوه الأول .
وهناك الملك الظاهر صاحب حلب ، وهو ثاني أولاد صلاح الدين الأيوبي .

أصله من أرض القبجاق ، أسر وبيع ، واشتراه — وكان صغير السن — رجل يدعى العماد الضائع . ثم باعه للأمير « علاء الدين آيدكين البندقداري » ولما قَبَضَ الملك الصالح نجم الدين الأيوبي على البندقداري ، أخذ ركن الدين وجعله من جملة مماليكه فنسب لذلك اليه ولقب بـ « الصالحي » ثم أعتقه الصالح وضمه إلى مماليكه البحرية ورباه معهم ، فشب شجاعاً باسلاً ، لا يهاب الردى .

وعرفته الحروب ، وهو أمير ، فارساً مقداماً إنْ في موقعة « المنصورة » التي هزم فيها الفرنجة في عهد توران شاه ، أو في موقعتي « عين جالوت » و « بيسان » اللتين هزم فيها التتار في عهد « قطز » .

واشترك بيبرس في عدة مؤامرات آخرها مؤامرة اغتيال « قطز » بعد انتصارهما على التتار . واستلم الحكم بعده . وبويع سلطاناً على مصر والشام .

ويعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقي لعظمة الدولة البحرية ، فقد قضى على المؤامرات ، وفتح عدداً من البلاد ، وملأ الدنيا مهابة زهاء سبعة عشر عاما . التفت خلالها إلى إصلاح مملكته .

وكما اتصف بالشجاعة والإقدام في الحروب وحسن ترتيبها ، عرف بالدهاء والكرم وحب الخير والإحسان إلى الفقراء . وكان يكرم العلماء وينطوي تحت مشورتهم ويقربهم .

روى السيوطي[1] أن الظاهر بيبرس حضر مرة إلى دار العدل في قضية بينه وبين أحد الأمراء أمام القاضي ابن بنت الأعز ، فقام الناس له تعظيماً ، إلا القاضي فقد أشار إليه السلطان بعدم القيام .

وبعث إليه ابن مالك النحوي صاحب « الألفية » المشهورة رسالة من الشام — وكان الظاهر في القاهرة — يستعين فيها على صلاح حاله فأعانه .

(١) حسن المحاضرة ٢/٧٤ .

كما كان يتحمل مخاشنة العلماء إياه في الحديث والنصيحة ، فلا يبطش بهم لمخاشنتهم ؛ فقد وقعت بينه وبين عبد الله يحيى النووي أحـــد علماء الشام مكاتبات أغلظ له فيها النووي النصيحة ، فما زاد على أن نفاه من دمشق .

وروي انه كان منقمعاً تحت كلمة الشيخ « عز الدين بن عبد السلام » ، وأنه قال لما مات الشيخ : « ما استقر ملكي إلا الآن »(١) .

ومن أجلّ أعماله مكافحة الكبائر ، وعقاب مرتكبيها وتشديد النكير عليهم ، وإعادة الخلافة العباسية ، والقيام بأعمال عمرانية كثيرة ، كان فيها كسب أدبي كبير لمصر والشام .

وتقدم فن البنـــاء والهندسة آنذاك لاهتمام المسؤولين بتشييد القصور والمدارس والمساجد والقباب (التربة) . والخوانق والقلاع ونحو ذلك .

ولم يك هذا البناء تلبية لداعي الحاجة فحسب ، بل كان ميدان تفاخر بين السلاطين ، لذا عُني هؤلاء بزخرفته وزينته ، وطبعي أن ينبغ في جو كهذا عـدد كبير من المهندسين أو « شادّي العمائر » كما كانوا يسمون في ذلك العهد (٢) .

وشيَّد الظاهر المدارس كسواه من السلاطين ، وكان أبرزها « المدرسة الظاهرية » في القاهرة بخط بين القصرين سنة ٦٦٠ هـ ، ويسميها السيوطي « المدرسة الظاهرية القديمة » تمييزاً لها عن « المدرسة الظاهرية » التي أنشأها بعدئذ الملك الظاهر ، برقوق سنة ٧٨٦ هـ ، في القاهرة أيضاً .

---

(١) عصر سلاطين المماليك ، لمحمود رزق سليم ٢٣/٣ .

(٢) عصر سلاطين المماليك ٢٣/٣ .

وعني بيبرس بظاهريته وأوقف عليها أوقافاً كثيرة ، وألحق بها خزانة كتب جليلة تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم . وبنى بجانبها مكتباً لتعليم الأيتام القرآن الكريم ، وأجرى عليهم الطعام والشراب ، ورتّب بها دروساً في المذاهب الأربعة ، والقراءات . وافتتحت باحتفال عظيم ، واعتبرت — كما قال المقريزي (١) — من أجلّ مدارس القاهرة .

المدرسة الظاهرية (الجوانية) أما المدرسة الظاهرية بدمشق ، والتي هي موضوع بحثنا ، فبانيها الملك السعيد أبو المعالي ناصر الدين محمد بركة قان ابن الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ هـ — ٦٧٨ هـ) ولكنه لا يُستبعد أن يكون أبوه الظاهر قد فكر ببناء ظاهرية دمشقية تحمل اسمه كتلك التي بناها في القاهرة إلا أن الموت عاجله قبل أن ينفذ فكرته . فقد توفي — مسموماً على ما روت الكتب — يوم الخميس الثامن عشر من محرم سنة ٦٧٦ هـ . فأخفى الأمير بدر الدين بيليك الخزندار خبر موته ، وأمر بحمله إلى قلعة دمشق ليلاً حيث غسل ، وحنط ، وكفن ، وجعل في تابوت علق هناك في بيت من بيوت البحرية .

ثم كتب الأمير « بدر الدين » إلى ولده « محمد بركة قان » مطالعة بيده كان من نتاجها أن أخذ له البيعة بعد أبيه باسم « الملك السعيد » .. وتوجّه سلطاناً لمصر والشام .

وصدر أمر السعيد ببناء الظاهرية ، — خلافاً لما أورده ابن كثير عن ابن قاضي شهبة (٢) — مدرسة ودار حديث وقبة لدفن أبيه ، إذ كان الظاهر

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ١/٦٤٦ .
(٢) الدارس للنعيمي ١/٣٤٨ .

قد أوصى أن يدفن على السابلة قريباً من داريا خارج السور وأن يبنى عليه هناك قبة فلا يعقل والحالة هذه أن يبني مدرسته وقبته في مكان ويوصي أن يدفن في غيره .

فرأى الملك السعيد أن يدفنه داخل سور دمشق ، فابتاع دار أحمد بن الحسين العقيقي ، وكانت قصراً للأيوبيين (١) بثمانية وأربعين ألف درهم — وقيل بستين ألفاً وقيل بسبعين (٢) — وأمر أن تبنى مدرسة للشافعية والحنفية ، ودار حديث ، وقبة للدفن ، كما ذكرنا .

بدأت عمارتها يوم الأربعاء الخامس من جمادى الأولى سنة ٦٧٦ هـ . ولما أنجز البناؤون القبة ، آخر جمادى الآخرة سنة ٦٧٦ هـ ، حضر الأمير علم الدين سنجر الحموي المعروف بأبي حوض ، والطواشي صفي الدين جوهر الهندي المصري إلى دمشق لدفن الملك الظاهر ، وكان نائبها آنذاك عز الدين ايدمر ، فعرفاه ما أمر به الملك السعيد ، فحمل تابوت الظاهر ليلاً ، وصلي عليه في الجامع الأموي ، ثم دفن في الخامس من رجب سنة ٦٧٦ هـ بالقبة من المدرسة التي أمر ببنائها باسمه .

افتتاح المدرسة : استمر عمل البناء في الظاهرية ، حتى إذا كان يوم الاربعاء الثالث عشر من صفر سنة ٦٧٧ هـ بدىء التدريس فيها — رغم أن بناءها لم يك قد كمل بعد — بحضور نائب السلطنة ايدمر الظاهري وقضاة دمشق .

واجتمع خلق كثير في الايوان الشرقي حيث ألقى الدرس الأول فيه الشيخ رشيد الفارقي مدرس الشافعيّة . وغصّ الايوان القبلي بالمستمعين للدرس الأول يلقيه فيه مدرس الحنفية القاضي صدر الدين سليمان ابن أبي العز .

---

(١) السلوك للمقريزي ١/٦٤٦ ، والنجوم الزاهرة ص ٢٦٣ .

(٢) قيل إن الدار كانت للشريف أحمد العقيقي ، ثم انتقلت إلى ملك الأمير فارس الدين اقطاي المستعرب الأتابك ، فاشترت من ورثته وهدمت وبني موضع بابها قبة الدفن .

وفي ذي الحجة سنة سبع وسبعين وستمئة قدم الملك السعيد إلى دمشق فقام ببعض الإصلاحات ، إلا أن المؤامرات كانت تحاك ضده ، فاضطر للرجوع إلى القاهرة ، ثم إلى خلع نفسه على أن تبقى له الكرك سنة ٦٧٨ هـ ، ونُصِّبَ أخوه « سلامش » سلطانا ، وكان في السابعة من عمره ، إلا أن أتابكه سيف الدين قلاوون خلعه واستولى على الحكم ولقب نفسه بالملك المنصور .

وفي منتصف ذي القعدة من العام نفسه توفي الملك السعيد ، ووري بالتربة الظاهرية إلى جانب أبيه (١) ولم تك تلك المدرسة قد تمت بناءً فأمر الملك المنصور قلاوون بإتمامها فكان ذلك . وقد سجل اسم بانيها في السطرين الأخيرين فوق بابها الرئيسي بخط نسخي مزهر .

جاء فيها ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بانشاء هذه التربة المباركة والمدرستين المعمورتين المولى السلطان الملك السعيد أبو المعالي محمد بركة قان ابن السلطان الشهيد الملك الظاهر المجاهد ركن الدين أبو الفتوح بيبرس الصالحي ، أنشأها لدفن والده الشهيد ولحق به عن قريب ، فاحتوى الضريح على ملكين ظاهر وسعيد . وأمر بإتمام عمارتها السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين خلد الله سلطانه » .

أما سبب تسميتها بالجوانية فذلك تمييزاً لها عن المدرسة الظاهرية البرانية التي بناها الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ، خارج باب النصر بمحلة المنيبع ، شرقي الخاتونية الحنفية ، وغربي الخانقاه الحسامية ، بين نهري القنوات وبانياس على الميدان بالشرف القبلي ، وجعلها على الشافعية (٢) .

---

(١) سجل على قبره ان وفاته كانت سنة ٦٧٦ هـ والصحيح ما أثبتناه أعلاه .

(٢) يذكر الأستاذ صلاح الدين المنجد في كتابه (مدارس دمشق) أنهـا درست . ويقول ابن بدران في منتخب النفائس انها : « محل الثكنة ، وزاوية المولوية ، وبستان الأعجام » .

أما المدرسة الظاهرية الجوانية — موضوع بحثنا هذا فتعتبر من أهم مدارس دمشق الباقية إلى اليوم رغم انه اعتورها ما اعتور سواها من عشرات المدارس التي كانت عامرة وعاشت ردحاً من الزمن تحت سماء دمشق مثابة للعلم وطلابه ، درسوا فيها القرآن والحديث والفقه والأصول والكلام والطب والرياضيات والطبيعيات والفلك والتاريخ والأدب وسوى ذلك ، والتي لم يبق منها إلا القليل وفي حكم الخراب . فقد درست معالمها وأكلت أوقافها ، واستصفيت معاهدها ولم يبق سوى ذكرها في بطون الكتب والدفاتر .

موقع الظاهرية : تقع الظاهرية من دمشق في حي العمارة بين بابي الفرج والفراديس ، تجاه العادلية (مقر مجمع اللغة العربية اليوم) بينها طريق باب البريد المفضي إلى الجامع الأموي .

شكل البناء : لا يزال مدخل المدرسة على حالته الأولى رغم ما صب التتار على دمشق من ويلات .

ولا ريب أن تحويل قصر العقيقي إلى مدرسة، كان من شأنه تغيير شكل البناء الأصلي فرفعت حوله الجبهتان : الجبهة الغربية وفيها الباب الرئيسي ، والجبهة الجنوبية، وأقيمت فيها قاعة الضريح التي بنيت عليها قبة على حطتين مضلعتين .

ويظهر أن الحمّام (١) الملاصق للمدرسة من جهتها الشمالية ، والايوان الشرقي كانا من أجزاء الدار القديمة . ويبدو أن مهندس المدرسة « ابراهيم بن غانم »

---

(١) حمام العقيقي : لا يزال حتى اليوم بحالة حسنة ، وتسميه العامة حمام « الملك الظاهر » أو « حمام العقيق » . وقد وسم على حساب المدرسة ، ويبدو هذا واضحاً لمن لاحظ نهاية الجدار الغربي للظاهرية .

استوحى تقاليد الفن الأيوبي الماضية التي كانت ماثلة في الدار نفسها ، وفي بناء المدرسة العادلية المقابلة . ولعله توخى من ذلك أن يجعل هـذين البنائين المتقابلين منسجمين كل الانسجام ، وأن يؤلف منهما وحدة عمرانية يكمل فيها جمال الأولى روعة الثانية .

وقد أفلح في مسعاه . فالمدرستان تروعان رائيهما فهما رابضتان وجهاً لوجه ، كعملاقين جبارين تتحديان الزمن والفناء بروعة وجلال .

إلا أن واجهتي المدرسة الظاهرية الغربية والجنوبية أجمـل من نظيرتيها في العادلية بكثير ، بل تعتبران من أجمل ما بنى المماليك . وهما مشيدتان بالأحجار المنحوتة المتقنة . وفي أعلاها كوى مستديرة تحيط بها زخارف هندسية متألفة من دوائر متداخلة .(١) .

أما المدخل الرئيسي فمبني بأحجار بيضاء ، وأخرى وردية اللون ، تتوجه نصف قبـــة من المقرنصات البديعة ويعلو الباب ثلاثة صفوف عريضة من الكتابات النسخية المزهرة الجميلة ، جاء في الصفين العلويين منها ذكر وقفها وفي الصفين السفليين أسماء بناتها .

وجاءت جملة أخرى في الزاوية الشمالية أعلى الرتاج « عمل ابراهيم بن غانم » المهندس رحمه الله . مما دل على أن المهندس عربي من أهل الديار . ولو لم يعف الزمن آثار هؤلاء الأسلاف ، ولو عني مؤرخونا بترجمة المهندسين عنايتهم بتراجم المتفقهين والمتأدبين والأطباء مثلاً لعلمنا الحلقات الناقصة من سلسلة حضارة العرب في سورية ، لأن هذه المعاهد لم تبنها إلا أيدي أبنائها وبوحي عقولهم .

والداخل إلى المدرسة يهبط دركة إلى عتبة المدخل التي يقوم على جانبيها دكتان حجريتان ورديتا اللون ، فاذا ما جاز بابها الجميل المزخرف « بالخيط

(١) مشاهد دمشق الأثرية ، لسليم عادل عبد الحق ، وخالد معاذ ، ص ٩٥ ب اللوحة (٤١) .

العربي وجد نفسه في رواق يمتد شمالاً جنوباً ذي ثلاث أقواس ، يحملها عمودان حجريان ضخمان ويرى البناء يأطر باحتها المربعة .

وإلى يمين الداخل في جنوب الرواق تقوم القبة الرائعة (تربة الملك الظاهر وابنه الملك السعيد) . يصعد اليها بدرجتين . وقد نقش على بابها الخشبي وقفها . والقاعة مربعة الشكل ترتفع قبتها نحو ثلاثين متراً على حطتين مضلعتين . تكسو جدرانها زخارف من المرمر الملون والحجر المنحوت ، ولا نعلم فيما إذا كان قد أخذ من مقالع في سورية أو جلب من بلاد غيرها .

ومحرابها آية في زخرفته بالمرمر الملون المجزع المصدف على طريقة « الموزائيك » وبالفسيفساء التي تعد نموذجاً صالحاً لزخرفة القرن السابع ، عدا نقوش دقيقة حفرت في المرمر نفسه ، وأطرت فتحة المحراب . ويزين جانبيه الآية الكريمة « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » . ويعلو المحراب قوس من المرمر المطعم غاية في دقة صنعته وبديع رسمه .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفي كل من جدران القاعة الثلاثة نافذتان أحيطتا بزخارف وحول الجدران زخارف بالفسيفساء الزجاجية الملونة تمثل قصوراً وشجراً ونقوشاً عربية رائعة ، وفوق هذه الزخرفة ، في منتصف أقواس الجدران فتحت كوى أربع في كل قوس واحدة .

الغربية والجنوبية منها تبدوان من الطريق مزخرفتين ، كما ذكرنا ، بدوائر متداخلة ، وثنتان داخليتان في الجدارين الشمالي والشرقي . تطل الشمالية على سطح الرواق القائم في مدخل المدرسة وتطل الشرقية على الايوان القبلي . وقد سدتا فيما بعد لما حولت الظاهرية إلى مدرسة ابتدائية ، وعدل شكل البناء فيها كما سيأتي بيانه .

ويقوم على الجبهة الجنوبية إلى جانب القبة وبمحاذاتها الايوان الجنوبي الذي خصص للحنفية ولا يزال ماثلاً بهيئته السابقة ، القوس والقبة والمحراب ويصعد إليه بدرجة .

أما الايوان الشرقي فقد دثر ولم يبق من قوسه إلا ثلاثة أحجار ، تدل على مشاكلته للايوان القبلي المذكور .

وعلى يساره بينـــه وبين الإيوان القبلي تقوم دار الحديث والتي لا يزال مدخلها واضحاً رغم التعديل فيه .

أما داخلها والجبهتان الشرقية والشمالية فلم يبق من بنائها القديم شيء ، فقد اندثر كله وحل محله بناء آخر يبدو أنه شيد في العهد التركي . وكل ما بقي من الجهة الشمالية قوس صغير يبدو في آخر الجدار الشمالي عن يسار الداخل آخر الرواق .

وهناك أيضاً إلى جوار القوس وفي آخر الجبهة الغربية [عن يسار الباب الرئيسي] باب آخر مسدود الآن لم أستطع أن أصل إلى معرفة ما كانا يشكلان في هذا البناء . هذه الأبنية تأطر باحة مربعة الشكل تتوسطها بركة مربعة الشكل أيضاً .

على كل من الصعب علينا أن نعرف الشكل القديم للمدرسة الظاهرية كاملاً ، ولا سيما جناحاها الشرقي والشمالي — كما ذكرت — اللهم إلا إذا هدم البناء الحالي وفرغت أطرافه ونبشت الأسس لتحديد البناء القديم ، وبذلك نستطيع أيضاً أن نعرف الخطة التي اختطها ابن غانم المهندس للمدرسة ؛ عندئذ نتمكن من إعادة بنائها بشكله القديم بالاعتماد على المقارنة والقرينة .

ويستفاد من تراجم بعض من درّس أو دَرَس فيها ولا سيما في دار الحديث — انه كانت هناك غرف لهم يعيشون فيها — وكان ذلك شرطاً على من يعين شيخاً لدار الحديث على الاقل — ولكن في أية جهة منها ؟ وما شكلها ؟ وهل هي أرضية أم علوية ؟ أمور كثيرة مجهولة من العسير الوصول إليها .

واردات الظاهرية : من السهولة بمكان تقدير واردات الظاهرية الوفيرة ، إذ أن نظرة نلقيها على الكتابات المنحوتة في أعلى بابها الخارجي ، وعلى باب قبتها تدلنا على غنى المدرسة ووفرة أوقافها ، فقد جاء في السطور العلوية المرقومة على الباب الرئيسي ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . الذي وقفه على هذه التربة والمدرستين ودار الحديث النبوي الحصة من قرية الطرة من عمل أذرعات ، ومبلغها أحد عشر سهماً وربع ، وثمن سهم من أصل أربعة وعشرين سهماً من قرية الصرمان بكاملها ومن أعمال الشعراء وقرية ازرع بكاملها من عمل نوى ، والحصة من قرية بيت الرامة ، وقرية سويمة وقرية الزراعة من الغور ، ومبلغها سهمان من أصل أربعة وعشرين سهماً ، والحصة من الأشرفية من عمل المرج من بلد دمشق ومبلغها تسع عشر سهما ونصف من أربعة وعشرين ، والبساتين الثلاثة المعروفة بابن سلام ظاهر دمشق من أراضي السهم الشرقي بسفح قاسيون ، وبستان يعرف بالسبتية ظاهر دمشق على الشرف الشمالي ، وطاحون السبتية الملاصقة للبستان المذكور ، وكرم يعرف بكرم طاعة بمدينة بانياس ، وخان بيت حنا ، وحانوت جوار بساتين ابن سلاّم . وخان يعرف بالاصطبل ظاهر دمشق ، والسفل الكامل من قيسارية الشرب وذلك في سنة ست وسبعين وستمئة » .

وكانت هذه الأوقاف المذكورة تمدّ المدرسة والقائمين عليها ومن يحيا فيها من طلبة العلم بالخير ، وتكفيهم مؤنة العيش ، وتوفر لهم وقتهم للتعلم والتعليم .

ويحدثنا ابن بدران (١) أن ركن الدين السمرقندي (— ٧٠١ هـ) كان مدرساً للحنفية فيها وناظراً عليها ، وكان يحيا في بحبوحة . ويبدو أنه امتلك

(١) منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ص ١٨١ .

من المال ما أغرى بوابها « علي الحوراني » بقتله ، وإلقائه في بركتها وأخذ ماله . وقد عوقب بصلبه على بابها .

ويحدثنا النعيمي (١) نقلاً عن الشيخ تاج الفزاري : أن العلامة رشيد الدين أبا حفص عمر بن اسماعيل الفارقي شيخ الشافعية وجد مخنوقاً في مسكنه بالمدرسة الظاهرية ، وقد أخذ ماله ، وذلك في شهر محرم من عام تسعة وثمانين وستمئة للهجرة .

ومن استعرض حياة طائفة ممن عمل فيها وجد أن الكل راغب في خدمتها ساع إلى الاستئثار بها أو إلى إيكال أمرها لابن له أو قريب ، وأعتقد أن وفرة ريع أوقافها كانت من جملة العوامل التي دفعتهم لأن يظلوا مجاهدين في ميدانها ، باثين حبّ العلم والفضل في نفوس طلابها ، مما جعلها تؤدي الخدمة الثقافية المرجوة خلال قرون .

إلا أن هذه الأوقاف بعضها درس وبعضها تناولته أيدي الطامعين ممن لا ضمير لهم ، وساءت حال المدرسة يوماً بعد يوم ، لولا أن تداركتها العناية الإلهية بطائفة من العلماء ذوي الوعي والضمير ، حولتها إلى مكتبة وطنية في أواخر القرن الثالث عشر في فترة كادت تلفظ فيها الأنفاس .

التدريس في الظاهرية :

ذكرنا أن الملك السعيد لما بنى المدرسة الظاهرية إلى جوار تربة أبيه ، جعلها على الحنفية والشافعية ، وأقام فيها دار حديث .

وقد درس فيها على المذهبين علماء أعلام نذكر أسماء بعضهم لنعرف سوية الثقافة التي كانت تقدمها هذه المدرسة ، ولنقف على تطور وضعها الثقافي من القرن السابع الهجري حتى نهاية القرن الثالث عشر .

(١) الدارس في تاريخ المدارس ص ٤٨ .

كان القرن السابع الهجري فترة اليمن والإقبال على المدرسة الظاهرية الفتية . وأول العلماء الأعلام الذين شهدهم الإيوان القبلي (منبر الأحناف) :

قاضي القضاة صدر الدين سليمان بن أبي العز الحنفي الأذرعي [٥٩٤-٦٧٧ هـ] شيخ الحنفية في زمانه وصاحب الجامع الصغير (١) .

ثم درس بها الصاحب محي الدين محمد بن يعقوب النحاس (٢) [٦١٤-٦٩٥] كان متبحراً في المذهب وغوامضه موصوفاً بالذكاء وحسن المناظرة ، انتهت اليه رئاسة المذهب بدمشق ، وكان — وهذا أمر يلفت الانتباه — معماراً مهندساً كاتباً موصوفاً بحسن الانصاف في البحث . وكان يقول : « أنا على مذهب الإمام أبي حنيفة في الفرع ، ومذهب الامام أحمد في الأصول . وكان يحب الحديث والسنة ، سمع منه ابن الخباز ، وابن العطار ، والعرضي ، والمزي ، والبرزالي ، وابن تيمية ، وابن حبيب ، والمقاتلي ، وأبو بكر الرحبي ، وابن النابلسي . وتكفينا نظرة نلقيها على تراجم طلابه هؤلاء لنعرف قيمة هذا الرجل ومن أنجبتهم هذه الدار .

ودرس فيها بعده سنة ٦٩٨ ابنه القاضي شهاب الدين يوسف بن محي الدين ابن النحاس (٣) وتلاها العلامة ركن الدين عبيد الله بن محمد السمرقندي وكان إماماً عابداً ومن كبار أئمة المذهب ، مكباً على المطالعة والتعليم وله ورد ، يصلي في اليوم والليلة مئة ركعة ، وله حلقة بالجامع . مات مخنوقاً بيد بواب الظاهرية سنة ٧٠١ هـ طمعاً في ماله وخسرت المدرسة بذلك عقلاً مفكراً وروحاً طيبة .

وارتفع في القرن نفسه وفي الايوان الشرقي (ركن الشافعية) أصوات علماء عدة منهم :

---

(١) شذرات ابن العماد ٥/٣٥٧ ومنادمة ابن بدران ص ١٨١ ودارس النعيمي ١/٥٤٣ .
(٢) الدارس : ١/٥٢٤ - ٥٢٥ .
(٣) الدارس : ١/٥٢٨ .

العلامة أبو حفص عمر بن اسماعيل الربعي الفارقي الدمشقي (١) [٥٩٨ — ٦٨٩ هـ] وكان فقيهاً أديباً مفتناً ، أفتى وناظر ، وبرع في البلاغة والنظر ، وكانت له اليد الطولى في التفسير واللغة . شارك في الأصول والطب والنظر في أحكام النجوم . انتهت اليه رياسة الأدب في عصره ، واشتغل عليه العديد من الفضلاء ومن غريب الصدف أن يخنق (كالسمرقندي) في مسكنه في الظاهرية ويسرق القاتل ماله .

ومنهم الأمير عز الدين ايدمر الظاهري (٢) [... — ٧٠٠ هـ] نائب دمشق ، وهو الذي افتتح التدريس فيها .

ومنهم أيضاً قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن بن تاج الدين العلائي الشافعي المعروف بابن بنت الأعز (٣) [... — ٦٩٥ هـ] .

أما دار الحديث فقد ولي مشيختها في تلك الحقبة من القرن السابع عدد من الفضلاء أبرزهم .

أبو إسحق اللوري (٤) [٦١٤ — ٦٨٧ هـ] . سمع من ابن رواحة ومن ابن الجميزي وطبقته ، وتفقه وتقدم في الحديث مع الزهد والعبادة والإيثار والصفات الحميدة والحرمة والجلالة .

ومنهم عز الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم الفاروثي الواسطي (٥) [٦١٤ — ٦٩٤ هـ] قرأ القرآن على والده وعلى الحسين الطيبي ، وسمع ببغداد

(١) الشذرات ٥/٤٠٨ ، والدارس ١/٣٥١ .
(٢) الشذرات ٥/٤٥٦ ، والدارس ١/٣٥١ .
(٣) الشذرات ٥/٤٣١ .
(٤) الدارس ١/٣٥٥ .
(٥) الدارس ١/٣٥٥ .

وواسط واصبهان ودمشق . وأخذ التصوف عن شهاب الدين السهروردي ، وروى الكثير بالحرمين والعراق ودمشق ، وسمع عنه كثيرون منهم البرزالي ، كما قرأ عليه القرآن جماعات ، وقال ابن كثير : إن كتبه بلغت ألفي مجلد ومئتين .

وروى الذهبي في عبره أنه كان فقيهاً شافعياً مدرساً فقيهاً عارفاً بالقراءات ووجوهها ، خطيباً واعظاً كريم الأخلاق ، جواداً محبوباً ، غادر دمشق سنة ٦٩١ هـ إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وانطلق من هناك إلى واسط حيث توفي .

ومنهم أبو اسحق ابراهيم الواسطي ثم الدمشقي الحنبلي[١] [٦٠٢ — ٦٩٢ هـ] وكان رجلاً صالحاً ، دعا إلى مذهب السلف الصالح والصدر الأول ، انفرد بعلو الرواية ، ولم يخلف بعده مثله ، وقد ولي في أواخر حياته مشيخة دار الحديث الظاهرية وكان ذلك بعد سفر الفاروثي .

وولي مشيخة الحديث بعـــده سنة ٦٩٢ شرف الدين عمر ابن خواجا المعروف بالناسخ .

ويطلع القرن الثامن على العالم العربي الاسلامي بعلماء لا يقلون عن سالفيهم علماً وفضلاً ، وعرفت الظاهرية من أحنافهم :

القاضي شمس الدين بن أبي العز الاذرعي الحنفي[٢] [٦٦٣ — ٧٢٢ هـ] من أعيان الحنفية . كان بارعاً في فنون من العلوم ، درّس في الظاهرية وكان ناظر أوقافها ، وأذن له بالافتاء .

ومنهم الصدر الكبير قطب الدين موسى بن أبي عبد الله محمد اليونيني المؤرخ[٣] [٦٤٠ — ٧٢٦ هـ] سمع من أبيه ومن ابن عبد الدايم ، وعبد العزيز ، والرشيد العطار ، واسماعيل بن صارم ، وأجاز له ابن رواج والبشيري .

---

(١) الدارس ١/٣٥٧ .
(٢) الدارس ١/٥٤٧ .
(٣) الشذرات ٦/٧٣ .

روى عنه الذهبي أنه كان عالماً فاضلاً مليح المحاضرة كريم النفس معظماً جليلاً حدّث بدمشق وبعلبك وجمع تاريخاً حسناً ذيل به على مرآة الزمان ، كما اختصر المرآة .

ومنهم كذلك العلاّمة شمس الدين محمد بن عثمان الأنصاري الحنفي الحريري(١) [٦٥٣ — ٧٢٨ هـ] . كان شيخ المذهب ، سمع من أبي اليسر ، وابن عطاء ، والجمال ابن الصيرفي ، والقطب بن أبي عصرون . وقد درس في الظاهرية عوضاً عن القاضي شمس الدين الملطي .

درّس وأفتى . كان وقوراً حسن السمت متين الديانة . منطلق العبارة وروي عنه أنه كان يراعي الإعراب في لفظه ، حتى مع النساء في بيته .

ومنهم أيضاً نجم الدين علي بن داود بن يحيى القرشي القحفازي الحنفي (٢) [٦٦٨ — ٧٤٥ هـ] : كان شيخ الأدب في عصره ، إماماً متفنناً وخطيباً مفوهاً ، تميز في الفقه والعربية وغيرها ، وله ذهن جيد ومناظرة صحيحة وشعر لا بأس به . سمع من البرهان ابن الدرجي وغيره . استلم التدريس في الظاهرية يوم الأربعاء السادس من صفر سنة ٧٢٢ هـ وذلك بعد موت شمس الدين ابن أبي العز الحنفي الأذرعي .

وشهد ايوان الشافعية في هذا القرن من رؤساء المذهب كل عالم فاضل أبرزهم : العلامة صفي الدين أبو عبد الله محمد الهندي الارموي الشافعي (٣) [٦٤٤ — ٧١٥ هـ] . كان متكلماً أشعرياً كثير الأسفار . أخذ عن ابن الوكيل ،

---

(١) فوات الوفيات للصلاح الصفدي سنة ٧٢٨ .

(٢) الدارس ١/٥٤٧ ، وذيل العبر اليونيني سنة ٧٤٥ . ذكر التميمي في دارسه : ١/٥٢٠ ما يفهم منه ان نجم الدين وزين الدين القحفازي هما لقبان لشخص واحد .

(٣) الدارس ١/١٢٩ .

وابن الفخر المصري ، وابن المرحل ، قدم دمشق سنة ٦٨٥ هـ وولي بها مشيخة الشيوخ ، وتدريس الشافعية في الظاهرية وسواها وتصدر للافتاء والاقراء في الأصول والمعقول والتصنيف . أفاد الناس وسلك تلاميذه مسلكه ووقف كتبه بدار الحديث الأشرفية .

ومنهم كمال الدين أبو المعالي محمد بن علاء الدين الزملكاني الشافعي (١) [٦١٦ - ٧٢٧ هـ] : شيخ الشافعية بالشام انتهت اليه رياسة المذهب تدريساً وافتاءً ومناظرة ، سمع منه الكثير ، واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري ، والقاضي بهاء الدين بن الزكي في الأصول ، وعلى بدر الدين بن مالك في النحو . وكان ذا ذهن وقاد ، حسن العبارة جيد الخط . روى الصفدي عنه انه كانت له خبرة بالمتون وكان بصيراً بالمذهب وأصوله قوي العربية ، قد أتقنها ذكاءً ودربهـــا ذكيا ، تلقى العلم على شهاب الدين الخويّي وشمس الدين الأيكي وصفي الدين الهندي . يقول الصفدي ولقد رأيته في الظاهرية وفي يده القائمة من الحساب وهو يساوق المباشرين على المصروف فيسبقهم إلى الجمع وعقد الجملة ، ويبقى ساعة ينتظرهم إلى أن يفرغوا ، فيقول : كم جاء معكم ؟ فيقولون : كذا وكذا . فيقول : لا ! فيعيدون الجمع إلى أن يصح .

ولي عدة مناصب هامة ، وقد طلبه السلطان ليوليه قضاء دمشق لما نقل قاضي القضاة جلال الدين القزويني إلى قضاء الديار المصرية ، ففرح الناس بالخبر ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يستلم مهام المنصب . له تعاليق مفيدة ، منها قطعة كبيرة من شرح المنهاج للنووي ، وقيل هو أول من شرحه . ومجلد في الرد على شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية في مسألة الطلاق .

(١) الدارس ١/٣٣ . ويذكر الصفدي انه ولد في شوال سنة ٦٦٧ هـ .

قال ابن كثير: « وأما دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس درّس أحسن منها، ولا أحلى من عبارته وحسن تقريره، وجودة احترازاته وصحة ذهنه وقوة قريحته وحسن نظمه .

ومنهم الشيخ الإمام جمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد التميمي الدمشقي القلانسي (١) [٦٦٩ — ٧٣١ هـ] .

كان محتشماً عالماً لين الكلمة متواضعاً حسن السمت براً بأهل العلم والصلحاء، اشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري، وتأدب على الرشيد الفارقي .

ولي مناصب عالية دينية ودنيوية، وأذن له بالإفتاء .

ومنهم الشيخ علاء الدين القلانسي أخو جمال الدين السابق الذكر (٢) [... — ٧٣٦ هـ] كان قاضي العسكر، ووكيل بيت المال، ومدرّساً في عدة مدارس؛ حلّ محل أخيه في تدريس الظاهرية .

وفي هذه الفترة من القرن الثامن تردد في أجواء الظاهرية صوت جلال الدين أبي المعالي محمد بن عبد الرحمن ... بن أحمد بن دلف العجلي القزويني الشافعي خطيب دمشق (٣) . [٦٦٦ — ٧٣٩ هـ] .

كانت له مشاركة في شتى العلوم والمعارف فعرف فقيهاً أصولياً محدثاً، كما عرف أديباً، عالماً بالعربية والمعاني والبيان، ينظم الشعر، وكان كذلك معدوداً بين القضاة والخطباء المفوهين .

---

(١) الدارس ١/١٩٧ .

(٢) الدارس ١/١٩٨ .

(٣) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٠/١٤٦، والشذرات لابن العماد ٦/١٢٣ .

سكن بلاد الروم فترة ثم قدم إلى دمشق حيث ناب في القضاء ، وولي الخطابة بها ، انتقل إلى الديار المصرية ، ثم عاد إلى دمشق وتوفي بها في ٢٧ جمادى الأولى . ودفن بمقابر الصوفية .

له تصانيف عديدة منها : تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي ، والايضاح في المعاني والبيان ، والشذر المرجاني من شعر الأرجاني .

وتردّد بعده صوت العلاّمة بقية السلف مفتي الشام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن القاضي محيي الدين ، المعروف بابن قاضي الزبداني [1] [٦٨٨-٧٧٦هـ] كان أديباً ، متواضعاً ، يغيث الملهوف ، ويقصده الناس لحل مشكلاتهم .

سمع الحديث ، وتفقه على الشيخ برهان الدين الفزاري ، وكمال الدين بن قاضي شهبة ، وكمال الدين بن الزملكاني ، وأذن له بالفتوى ، ولم يضبط عليه فتوى أخطأ فيها ، لذا كان معظماً تخضع له الشيوخ ، وتسمع له القضاة .

وممن تولى تدريسها أيضاً من الشافعية : أبو العباس شهاب الدين الاذرعي الدمشقي ثم الحلبي الشافعي [2] [٧٠٨ — ٧٨٣ هـ] سمع على القاسم ابن عساكر ، وأحمد ابن الشحنة ، والصدر عبد المؤمن الحارثي ، وقرأ على الحافظين الذهبي والمزّي ، وكانا يعجبان بقراءته .

أجاز له من دمشق : أبو النصر الشيرازي ، وإسحق الآمدي ، وأبو عبد الله الزرّاد ، ومن مصر : أبو الحسن بن قريش ، وأبو الحسن الوائي ، وأبو الفتح الدبوسي ، وصالح الأشنهي ، ويوسف الختني ، وعمر العتبي ، وعبدالله الصواف وسواهم . وقد خرج له عنهم الامام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجي جزءاً حدث به .

---

(١) الدارس ٣١١/١ .
(٢) الدارس ٥٦/١ .

تفقه الأذرعي وبرع حتى صار شيخ البلاد الشامية ، وأحفظ الناس لفروع المذهب ، من تصانيفه (قوت المحتاج) و (عنية المحتاج) وكلاهما في شرح (المنهاج) . وله (المتوسط في الفتح بين الروضة والشرح) يعني (شرح الرافعي الكبير) في عشرين مجلدة ، وهو كتاب جليـــل ، وله مختصر « الحاوي » للماوردي .

ومنهم كذلك المفتي البارع نجم الدين أبو العباس أحمد بن عثمان الياسوفي الدمشقي المعروف بابن الجابي (١) [٧٣٦ — ٧٨٧ هـ] .

سمع الحديث ، وتفهمه ، وأخذ الفقه عن الغزي ، والحسباني ، وابن حجي وغيرهم . كما أخذ الأصول عن الشيخ بهاء الدين الأخميمي ، ثم درس وأفتى ، وولي تدريس الظاهرية .

وكذلك القاضي تاج الدين أحمـــد بن فتح الدين ابن الشهيد (٢) [٧٥٠ — ٨٠٠ هـ] كان عالماً خبيراً بصنعة الكتابة محبباً إلى الناس . تولى تدريس الظاهرية بعد أن نزل له عنها قاضي القضاة شمس الدين الاخنائي وبقي يدرس فيها حتى مات سنة ٨٠٠ هـ .

أما دار الحديث فقد ولي مشيختها في القرن الثامن هذا عدد من العلماء الفضلاء نذكر منهم :

شرف الدين عمر بن محمد المعروف بالناسخ (٣) [٦١٨ — ٧٠٢ هـ] درس فيها بعد تقي الدين الواسطي . سمع من ابن الزبيدي وابن اللتي وفخر الدين

(١) الدارس ١/٢٤١ .
(٢) الدارس ١/٣٣٧ .
(٣) الدرر الكامنة ٣/١٨٩ .

ابن الشيرجي ومن غيرهم . وكان حسن الخط ينسخ الختمات والربعات ويذهبها ، فعرف بالناسخ ، وكان ديّناً كريماً حسن الشكل من بقايا الفقراء الحريرية ، وله نصيب من ذكر ومشيخة . استلم التدريس في دار الحديث الظاهرية سنة ٦٩٢ هـ وبقي فيه حتى نهاية حياته .

ومنهم شرف الدين أبو حفص عمر بن محمد الفزاري [1] [٦٣٢ - ٧٠٢ هـ] وقد باشر مشيخة دار الحديث الظاهرية يوم الخميس الثامن من ربيع الأول سنة ٧٠٢ هـ عوضاً عن شرف الدين الناسخ . وكان برّاً خلوقاً . وقد حضر دروسه عدد من الأعيان ، ولكن لم يطل عهده فيها ، إذ توفي في العام الذي ولي فيه التدريس عن سبعين عاما .

وأبرز من ولي مشيخة دار الحديث في القرن الثامن .

عفيف الدين اسحق بن يحيى الآمدي ثم الدمشقي الحنفي [2] [٦٤٠-٧٢٥هـ] : سمع الحديث على كثيرين منهم مجد الدين بن تيمية ؛ وكان الآمدي شيخاً فاضلاً ، حسن السمت ، سهل الإسماع ، يحب الرواية . قال الذهبي [3] عنه : « وروى عن ابن خليل وعن عيسى الخياط والضياء صقر وغيرهم . وطلب الحديث ، وحصّل أصولاً بمرويّاته . وخرج له ابن المهندس معجماً قرأته عليه ، وكان لا بأس به » .

ومن شيوخ دار الحديث أيضاً : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي [4] [٦٧٣ — ٧٤٨ هـ] : كان حافظاً مؤرخاً ، وعلاّمة محققاً ،

---

(١) الدارس ١/٣٠٧ .
(٢) الدارس ١/٣٠٧ .
(٣) العبر سنة ٧٢٥ هـ .
(٤) الشذرات ٦/١٥٣ والأعلام ٦/٢٢٢ .

ورحّالة باحثاً ، له تصانيف كثيرة تقارب المئة منها : « دول الإسلام » و « المشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والألقاب » و « العباب » و « تاريخ الإسلام » و « تذكرة الحفاظ » و « طبقات القراء » و « المستدرك على مستدرك الحاكم » وسوى ذلك .

ومن شيوخها أخيراً : قوام الدين لطف الله الحنفي (١) [٦٨٥ – ٧٥٨ هـ] : كان رأساً في مذهب أبي حنيفة ، بارعاً في اللغة ، عابداً زاهداً . ولي تدريس الحديث بعد وفاة الذهبي ، وأخذ عنه الشيخ محب الدين ابن الوحدية (٢) .

ويطل القرن التاسع للهجرة وتشهد الظاهرية العديد من أعلامه . أبرزهم الشيخ جمال الدين الطيماني (٣) [٧٧١ – ٨١٥ هـ] : أبو محمد عبد الله بن طيمان المصري ثم الدمشقي . نشأ يتيماً فقيراً وصلّى بالقرآن وهو ابن سبع سنين . اشتغل على مذهب الإمام أحمد ، ثم انتقل إلى المذهب الشافعي وتفقه . لزم الشيخ برهان الدين الاسكندراني ، ثم أخذ عن الشيخ سراج الدين البلقيني . وعن الشيخ عز الدين بن جماعة ، أخذ الأصول والنحو والعلوم العقلية . وأقام بالشام يشتغل ، ويفتي، ويصنف، ويدرس في عدة مدارس منها الظاهرية . ولم يتكلم إلا معرباً ، روى ذلك عنه الشهاب ابن حجي . مات قتيلاً بمنزله في التعديل في الفتنة التي وقعت بين الناصر وغرمائه ، في صفر سنة خمس عشرة وثمانمئة .

ومن مدرسي الظاهرية في هذه الحقبة وأواخر القرن السابق : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن تاج الدين الأخنائي الشافعي (٤) [٧٥٧ – ٨١٦ هـ] ولي

(١) الشذرات ٦/١٦٥ .
(٢) طبقات النحاة للسيوطي .
(٣) الدارس ١/٢٥٦ .
(٤) الدارس ١/١١٤ – ١١٥ .

القضاء في عدة مناطق ثم درّس في الظاهرية ، ونزل له عن المنصب علاء الدين الكركي كاتب السر الذي أخذه عن ابن الشهيد . كما ولي وكالة بيت المال ونظر الجيش ، ولكنه ما وفق في شيء كالتدريس والمشيخة .

ودرّس فيها القاضي العالم والأديب فتح الدين أبو بكر محمد بن ابراهيم ابن محمد المعروف بابن شهيد كاتب السر بدمشق [٧٢٨ — ٨٢٣] (١) اشتغل في العلوم وتفنّن وفاق أقرانه في النظم والنثر . ولي تدريس الظاهرية عوضاً عن ابن قاضي الزبداني الذي نزل له عنها .

وولي التدريس فيها أيضاً شمس الدين محمـــد بن عبد الدايم البرماوي الشافعي (٢) [٧٦٣ — ٨٣١ هـ] : تفقه في شبابه ، وسمع من ابراهيم بن اسحق الآمـدي وعبد الرحمن بن القاري وغيرهما ، كان خيّراً ، متواضعاً ، مصنفاً ، ناظماً ، له ألفية في أصول الفقة ، شرحها في نحو مجلدين ، ويقول عن هذا المؤلف إنه جملة ما حصل طول عمره . كما شرح لامية ابن مالك شرحاً جيداً ، واختصر السيرة . جاور بمكة ثم انتقل الى القاهرة ومنها الى القدس حيث توفي سنة ٨٣١ هـ .

أما دار الحديث فقد عرف أن شمس الدين البهنسي ٨٣١ هـ (٣) تولاّها عصرئذ وكان ساكناً ليناً ، وعرف أنه كان يقرأ البخاري بالجامع المقابل للشبلية وغيره .

ودمر القرن العاشر واستمع طلاب الظاهرية إلى الشيخ تاج الدين عبد الوهاب ابن شرف الدين يونس العيثاوي الشافعي (٤) [٩٢١ — ٩٥٨] ،

---

(١) الدارس ٣٥٣/١ .
(٢) الشذرات ١٥٦/٧ .
(٣) ذيل ابن شهبة سنة ٨٣١ هـ .
(٤) الشذرات ٣٢١/٨ .

قرأ على والده، وعلى الشيخ تقي الدين البلاطنسي، وأبي اللطف المقدسي، وأجازاه كما أجازه مفتي بعلبك البهاء بن القصي، والجمال الديروطي، وسمع على التاج العرضي.

نشأ من صغره في طاعة الله متأدباً متواضعاً سليم الفطرة منور الطلعة، دَرّس في الفقه والنحو والتفسير والحديث.

وسمع طلبة العلم في دمشق من أهل القرن الحادي عشر صوت الشيخ رمضان بن عبد الحق العكاري الدمشقي الفقيه الحنفي [٩٨٤ — ١٠٥٦ هـ](١) يدرس في الظاهرية، وكان عالماً بالفقه والعربية متبحراً فيها، وكان غاية في جودة التعليم وحسن التفهيم. وله اطلاع زائد على فروع المذهب.

كما عرفت الظاهرية الشيخ زكريا بن حسين بن مسيح البوسنوي الدمشقي(٢) [٩٢٥ — ١٠٧٣ هـ] كان يحسن اللغات الفارسية والتركية والبوسنوية والعربية وكان يكتب الخط المليح. وله فضيلة وحسن ومنادمة. مات سنة ١٠٧٣ هـ. ودفن في مقبرة الفراديس.

أما القرن الثاني عشر فقد شهد فيه إيوان الأحناف في المدرسة الظاهرية الشيخ عبد الرحمن بن أحمد القاري(٣) الحنفي الدمشقي، أحد الصدور من أعيان دمشق، تولى أمر تدريس الظاهرية حتى إنه درس بها حين أمر والي دمشق مراد قزك بأن يلازم المدرسون في كل مكان الدروس والإقراء، وقبله

---

(١) خلاصة الأثر ٢/١٦٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سلك الدرر ٢/٢٨١.

كان واليا دمشق نصوح باشا ثم حسين باشا قد أمرا بذلك . فصار مدرس كل مدرسة يباشر الإقراء ويوكل عنه من يقوم بالتدريس . واستقام ذلك قليلاً ثم عاد الأمر إلى سابق عهده . وكان الشيخ عبد الرحمن حين يقرأ ، يسرد العبارة فإذا صدر منه خلل في بعض المسائل أو غلط لا يقدر أحد على ردّه ؛ وكلهم من الأفاضل ، أجلاء صامتون ناصتون . وكانوا أحياناً يصححون له أماليه قبل أن يقرأها ثم يمليها هو سرداً .

وشهد إيوان الشافعية فيها علي بن الحسين الشافعي المصري[1] نزيل دمشق . كان عالماً فاضلاً ملازماً للتقوى والصلاح حافظاً لكتاب الله . قطن أولاً بالمدرسة الاخنائية الكائنة قرب الجامع الأموي جانب السميساطية ، ثم تحول إلى المدرسة الجقمقية ، ثم إلى الظاهرية ، حيث أقرأ الأولاد القرآن الكريم ، كما أقرأ النحو وغيره .

أما كتب التراجم للقرن الثالث عشر[2] فلم تضع يدنا في يد شيخ واحد درّس أو سمع في الظاهرية لنفهم منه ما آلت إليه هذه المدرسة ، مما يدل على تضاؤل شأنها بَعْدَ عز وبُعد صيت ، واقتصار شيوخها على تعليم الصبية وكأنها آلت إلى كتّاب ، ولم يكن لها ذلك المركز الممتاز الذي تمتعت به قبل اندثار أوقافها على أيدي مختلسيها وذراريهم على مر الزمان .

---

(١) سلك الدرر ٣/٢١٣ .

(٢) كحلية البصر في تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبد الرزاق البيطار تحقيق حفيده العالم الشيخ محمد بهجة .

والحق أن المدرسة الظاهرية كانت في هذا القرن تحتضر كمدرسة المذهبين ودار حديث ، وأقامت الحكومة التركية فيها مدرسة ابتدائية رسمية تشرف عليها وزارة المعارف .

حتى إذا ما أشرف هذا القرن على نهـــايته ، وكادت ظاهريتنا تلفظ أنفاسها ، أعادها الله إلى الحياة بروح جديدة وثوب جديد ، على يد طائفة من العلماء الأجلاء ، أبرزهم المرحوم الشيخ طـاهر الجزائري ، ومنذ ئذ عرفت بدار الكتب الظاهرية . ونابت مسيرها عبر الزمن لتؤدي الرسالة التي آخذت على نفسها أداءها على خير وجه .

(يتبع) أسماء الحمصي

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى